

خصائص التصوف الإسلامي

الدرس
6

أهداف الدرس

1. أن أتعرف خصائص التصوف الإسلامي .
2. أن أثبت مكانته في الدين .
3. أن أستحضر خصائص التصوف الإسلامي وأتمثل قيمه في سلوكي .

تمهيد

اشتمل التصوف الإسلامي على خصائص ومميزات تحقق بناء شخصية متوازنة، تجمع سعادة الدنيا والآخرة، فتعيش النفس آمنة مطمئنة بذكر الله، رغبة فيما عند الله، متبعة صراطه المستقيم، مستقيمة الفكر والسلوك، محقة عمارة الأرض وإصلاحها، قائمة بأمر الله في سرها وعلانياتها. فما خصائص التصوف الإسلامي؟ وما أهم مميزاته؟.

نص الانطلاق

1. قال الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي -رحمه الله- «اعلم يا أخي أن الله جل ذكره قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة، وشرع لك شرائع، ذلك عليها وأمر بك بها، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب، رحمةً لك، وحذرك نفسه شفقة منه عليك. فقم يا أخي بفرائضه، والزم شرائعه، ووافق سنة نبيه ﷺ، واتبع آثار أصحاب نبيه، والزم سيرتهم، وتأدب بأدابهم، واسلك طريقهم، واهتد بهداهم، وتوسل إلى الله بحبهم، وحب من أحبهم، فهم الذين أنابوا إليه وقصدوا قصده، واختارهم لصحبة نبيه، فجعلهم له أحبباً وأخذاناً. واعلم يا أخي أن علامة حبك إياهم: لزومك محبتهم، مع استقامة قلبك وصحة عملك، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك، كما كان القوم في هذه الأحوال؛ فهذا يحقق منك صدق دعواك لحبهم والتمسك بسنتهم» [آداب النفوس، ص 32].

2. قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: «إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به» [المنقذ من الضلال، ص 178].

الفهم

الشرح:

- الفرائض الباطنة: مثل إرادة الله بالعمل، والإيمان بالقدر، ووحدانية الله.
- مشكاة النبوة: نور النبوة وهداياها الذي يستضاء به. والمشكاة: أنوارها خارجة من ثقب عدة.
- استخلاص المضامين: أستخلص ما في النصين من خصائص التصوف الإسلامي وسماته.

التحليل

خصائص التصوف الإسلامي هي جملة من المميزات التي تميزه عن غيره من المذاهب الفكرية والسلوكية، منهاجاً، وطريقة، وتجربة. وخصائص التصوف الإسلامي السني متعددة، أهمها:

1. الربانية، وذلك بما يقتضيه التصوف من انتساب في العمل إلى الله، بأن يكون أهله «علماء حكماء متخلقين بأخلاق الحق نظراً وخلقاً، وهُم فارغون عن الإخبار عن الخلق والنظر إليهم والاشتغال بهم» [الرسالة القشيرية، 387/2]. وربانيته تظهر في أصل مسأله المستمدة من وحي الله، فهي من الله، وتدل على الله، وتقرب إليه، بما تقوم عليه من توحيد وإيمان، فالربانية في التصوف الإسلامي أصل وغاية، وركناها العلم والعمل ﴿وَلِكُلِّ كُونُوا رَبَّانِيَّيْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابِ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 78]. ومما قيل في معنى «كُونُوا رَبَّانِيَّيْنِ» أي: علماء بالله، فقهاء في دينه، حلما على الناس، تُربون الناس بالعلم والعمل والهمة والحال» [البحر المديد، 373/1].

2. الاتباع وموافقة الشريعة، يتميز التصوف الإسلامي بكونه قائما على «اتباع الرسول في الشريعة» فأساسه الاتباع وترك الابتداع، فالصوفي كما قال الشيخ زروق -رحمه الله- «لا يفارق السلف في معتقده، ولا يفارق الفقهاء في معتمده؛ لأن العقائد رأس ماله، والأحكام أساس أعماله، فالمخاطرة بهما ضرر، والعمل بغير المذهبين المذكورين فيهما غرر» [قواعد التصوف، ص 307]. وأساس الاتباع موافقة الأمر، وترك حظوظ النفس، وإيثار حقوق الحق واتباع شرعه، كما أشار إلى ذلك المحاسبي بقوله «فقم يا أخي بفرائضه، والزم شرائعه، ووافق سنة نبيه ﷺ، واتبع آثار أصحاب نبيه».

3. التزكية، وهي سمة من سمات المتصوف، وركن متين فيه، وهي وسيلة وغاية، بها تهذيب الأخلاق، وإصلاح الباطن والظاهر، والتصوف تصفية البواطن من الرذائل، وتحليلتها بأنواع الفضائل بما تضمنه من تزكية النفس وتطهيرها من دواعي الهوى والشهوات، وما فيه من إقامة شعائر الدين والعبادة والتقرب إلى الله، وقد تقرر عند أرباب التصوف أن التصوف أخلاق، وفي ذلك قالوا «من زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف». وأساس التزكية صفاء السريرة واتباع السيرة، وفي معنى ذلك قال الإمام المحاسبي «والزم سيرتهم، وتأدّب بأدابهم، واسلك طريقهم، واهتد بهُداهم...، مع استقامة قلبك وصحة عملك، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك».

4. موافقة الفطرة السليمة، وتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، بما يحققه من امتثال واستجابة لأمر الله سبحانه **﴿بِأَفْهَمَ وَجْهًا لِلدِّينِ حَنِيبًا فِكْرَ اللَّهِ إِلَيْهِ فَبَهِرَ النَّاسَ عَالِمًا لَا تَبْدِيلَ لِخُلُقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَا كُفْرَ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الروم: 29]. فما في التصوف من تربية وسلوك يلائم ما به قوام واستقامة النفس البشرية لتحقيق سكينتها وسعادتها وطمانينتها.

5. العلم والعمل، فالتصوف - في منهجه السني - الذي اختاره المغاربة على طريقة الإمام الجنيد رحمه الله ينأى عن النظريات الفلسفية المغرقة، والتأثيرات التي تخرجه عن مقصده وغايته، فهو علم وعمل، يغترف كلُّ منه على قدر قصده بكسبه وسعيه، مترقيا في مراتب العلم والعمل بتوفيق وعطاء ربه. ولا يقتصر مفهوم العمل على ما قد يتبادر إلى الذهن من العبادات فقط، بل يشمل أمور الحياة العامة من عمارة الأرض وإصلاحها، وتلبية حاجيات المجتمع من تربية وتعليم، وقد عُرف عن شيوخ التصوف بالمغرب ما كان لهم من عناية بطلبة العلم إيواء وتربية وتعلما وإكراما، كل ذلك ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وبذلك جعل صوفية المغرب مفهوما واسعا للعمل بشتى أنواعه من خلال سلوكهم وممارستهم العملية.

6. **معرفة الله**، وهي معرفة قلبية عرفانية، وثمره عملية، هبة من الله يهبها لمن يشاء من عباده وصفوة أوليائه، وذلك بما تثمره التجربة الروحية من مواهب، وما تفتحه من معارف، وهي أنواع، منها: «معرفة التوحيد» الخاصة بعامة المؤمنين، ومعرفة «الحجة والبيان» الخاصة بالعلماء والحكماء المخلصين، و«معرفة صفة الوجدانية» الخاصة بأهل ولاية الله المخلصين الذين يفتح الله عليهم ما فضلهم به على غيرهم، وهو تفضيل أساسه مجاهدة النفس ورياضتها على الطاعات والترقي في درجات السير إلى الله «وهي عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هي قوت الأرواح السماوية، فقوت الأشباح الأرضية ما يخرج من الأرض من الأقوات الحسية، وقوت الأرواح السماوية ما ينزل من السماء من العلوم اللدنية والأسرار الربانية» [البحر المديد، 91/2]. فالمعرفة عند الصوفية ذوقية عملية وهي بذلك تفوق المعرفة العقلية المقتصرة على البحث والنظر.

7. **المجاهدة والسعي نحو الكمال الإنساني**، وذلك بما يتميز به سلوك طريق التصوف من كبح جماح النفس ونهيها عن الهوى، فيظل العبد في مجاهدة ورياضة، وتربية للنفس، قال الإمام الغزالي -رحمه الله- «وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص، فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص، لا يقتصر في دينه على القدر الذي تحصل به العدالة» [إحياء علوم الدين، 251/2].

8. **الشمول والتكامل**، فالتصوف يتميز ببناء الشخصية الإنسانية المتكاملة، المهمة بإصلاح الباطن والظاهر، وعبادة الله وعمارة الأرض، وتصحيح العبادة والمعاملة. كما يحقق وجهاً آخر من التكامل بما بين التصوف وغيره من العلوم من تكامل، فلا تصوف إلا بفقه، ولا فقه إلا بتصوف، فعلم الظاهر والباطن متلازمان، والعلوم الإسلامية كلها تستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية وإن ظهرت مسائلها مختلفة فهو اختلاف منهجي، ومقاصدها متكاملة، كل علم لبنة تسد مسدها في البناء، قال الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- «وأصل التصوف مقام الإحسان، الذي فسر رسول الله ﷺ ب «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...» كما دار الفقه على مقام الإسلام، والأصول على مقام الإيمان» [قواعد التصوف، 24].

9. **الأحوال والأذواق**، وتحصيلها يكون على قدر اجتهد العبد وتوفيق الله له، وقد تقرر عند أرباب التصوف أنه لا يصلح لسماع هذا العلم إلا من حصلت له أربعة: الزهد، والعلم، والتوكل، واليقين. فمن حققها تحققت له الأحوال والمقامات والأذواق، قال الإمام الغزالي -رحمه الله- متحدثاً عن تجربته في التصوف «فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما

يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك» [المنقذ من الضلال، 172].

10. التعاون والتسامح، وذلك بما يتحقق في التخلق به من تعاون مع أفراد المجتمع وتسابق إلى العطاء والإيثار، فيثمر عفوا وصفحا في المعاملة، فالتفرغ لتربية «المريد» مظهر من مظاهر الانخراط في إصلاح المجتمع ودفع الآفات عنه، وتحقيق التعاون بين أفرادها بما يتضمنه من فضائل، كالمحبة والأخوة، والتكافل، وقيم السلم والسلام الذي يثمر التعاون بين أفراد المجتمع.

11. التوازن بين الشريعة والحقيقة، وذلك بالجمع بين الأحكام الشرعية وآثارها الروحية التي تحقق الصفاء والنقاء، وتربي على الإخلاص وتقوى الله في السر والعلانية، ونبذ الرياء والمظاهر الجوفاء التي لا يراد بها وجه الله تعالى، وقد قالوا «من حقق الأصول نال الوصول». وأرباب التصوف كما قال الغزالي «جميع حركاتهم لكل أتباع، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

12. الوسطية والاعتدال، يستمد التصوف الإسلامي وسطيته واعتداله من طبيعة مصادره المعتمدة، من قرآن وسنة، وكلام أئمة أعلام عرفوا بالوسطية في علمهم وعملهم، فلا رهبانية فيه، أو ترك للمسؤولية الفردية والأسرية والاجتماعية، بل هو قيام بالواجب، وعبادة لله على بصيرة، فلا إفراط ولا تفريط، وقد تسرع من زعم أن التصوف ترك للمسؤولية الاجتماعية وتفريط فيما أوجبه الله من النفقة والعناية والرعاية، بل التصوف الحق قائم على مراعاة فرائض الله في مختلف مجالات الحياة وفق شرع الله الذي أعطى كل ذي حق حقه، وفرق بين مجاهدة النفس وإهمال الواجب، فليتأمل الطالب.

قال الشيخ زروق رحمه الله: «في اختلاف المسالك راحة للسالك، وإعانة على ما أراد من بلوغ الأرب والتوصل بالمراد. فلذلك اختلفت طرق القوم ووجوه سلوكهم، فمن ناسك يوتر الفضائل بكل حال، ومن عابد يتمسك بصحيح الأعمال، ومن زاهد يفر من الخلائق، ومن عارف يتعلق بالحقائق، ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط، ومن متمسك يتعلق بالقوم في كل مناط، ومن مريد يقوم بمعاملة البساط، والكل في دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل ذميمة وشنيعة». [قواعد التصوف، ص 106].

التقويم

1. ما هي أهم خصائص التصوف الإسلامي؟
2. كيف ترد على من زعم أن التصوف عزلة عن الحياة وفرار من الواجبات الاجتماعية؟

الاستثمار

قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: «الإنسان خُلِقَ بحيث لا يعيش وحده، بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه، وذلك لسببين، أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما. والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس وتربية الولد؛ فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت، ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة؛ فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحّان وخباز، وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة؛ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع» [إحياء علوم الدين، 3/125]

أتأمل النص وأبرز من خلاله منظور الإمام الغزالي للمسؤولية المجتمعية للإنسان.

الإعداد القبلي

أبحث عن معاني المصطلحات التالية: «التحلية» «التخلية» «التجلية».